انشقاق فوتيوس — تاريخ واسطورة (تابع)

بقلم الاب يوحنا كابلوس اليسوعي

٣ — فوتيوس وروما : لو كان فوتيوس قد اراد ان يتبوأ سدّته بطمأنينة لكان عليه ان يطلب عاجلاً ان تثبت روما انتخابه ، وفي مثل هذا المقام سنصادف نقولا الاول واغناطيوس وفوتيوس وجهاً لوجه . ففي سنة ٨٦٠ غنم ميخائيل الثالث فرصة ارسال (اعتراف فوتيوس بالايمان) « Synodique » الى نقولا الاول ليدعو البابا الى ايفاد مندوبين الى بيزنطية اذ كان في نيّته ان يعقد مجمعاً فيها ليحدّد مجدّداً التعليم الكاثوليكي بشأن تكريم الصور (ص١١٧—١٢٣) فاجابه البابا شاكراً اهتمامه حيال الكنيسة ولكنه اظهر دهشته لعزل المجمع لاغناطيوس من دون موافقة الحبر الروماني — لان الدعوى المقامة عليه لم تبد له صحيحة — ومن ثم اللجوء الى انتخاب علماني وذلك ما تحرمه القوانين — فهو يرفض اذاً الاعتراف بفوتيوس قبل ان يتناول التحقيق الذي سيقوم به مندوباه. « ليعرف اذا كانت قد روعيت حرمة القوانين او لا حتى اذا تسألنا تقريرهما نقول بسلطاننا الرسولي ماذا يجب ان يتم لكي تستطيع كنيستكم التي طالت فيها القلاقل بسبب هذه الاشجان ان تحيا بسلام وامان » (ص ١٢٣) . وختم البابا رسالته مطالباً الى الامبراطور ان يردّ الى كرسي روما حقّ ولايته على ايليريكوم « Illyricum » وما يؤول اليه شرعاً من ممتلكات كالابر « Calabre » وصقلية « Sicile » والحق بالاحتفاظ بسيامة رئيس اساقفة سيراكوزا « Syracuse » وهي امور حرمته اياها بيزنطية . أمّا جوابه على اعتراف فوتيوس بالايمان فموجز حازم لكنه مفرغ بقالب ودّي : اعرب فيه عن ارتياحه لتلقي اعترافه بالايمان المستقيم الرأي « الارثوذكسي » واخذ عليه الاسراع في سيامته اسراعاً مخالفاً للقوانين ومع ذلك فقد اكّد له انه اذا كان التحقيق الذي كلف موفديه القيام به يأتي في مصلحته فانه « سيعانق البطريرك ويحضه خالص ودّه في محبة اخوية » .

انه ما من سارك اعقل من هذا السلوك فالبابا لم يدلِ بحكمه سلفاً على شيء لا في مصلحة اغناطيوس ولا ضد فوتيوس .

فماذا اعتقدت البعثة الرومانية التي ذهبت الى القسطنطينية سنة ٨٦١ انها ستجد ؟ وهي التي كانت مؤلفة من رادوالد ديورتو « Rodoald de Porto » وذكريا دانانيي « Zacharie d'Anagni » . وماذا صادفت بالواقع ؟ انها صادفت وفداً مثقلاً بالهدايا كما كانت العادة [فاعتقد المؤرخون خطأً انه كان لشرائها] وقد ذهب قدامها حتى سالونيك . اما في القسطنطينية فحجزت في مخادعها [واذا استطاعت الاتصال باغناطيوس فانه كان من المستحيل عليها تقريبا كل اتصال باليونانيين وكان موعد افتتاح المجمع قد طال لانها وصلت حوالي عيد الميلاد فبدأت جلساته بعد عيد الفصح ولم يسفر كل ذلك عن شيء مستحب .

واول ما كان يهتم له مبعوثا الحبر الروماني هو ان تسير الدعوى طبقاً وفق تعليمات البابا بيد انها قد تبين لها صراحة انها لم تكفهم ابداً . اذ ان الاحداث قد سارت في سيرها منذ سنتين ولم تبقَ التوجيهات الواصلة تتفق لا مع وجهات نظر الامبراطور وفوتيوس ولا مع عادات كنيستها فنجم عن ذلك ان رفض كلاهما العمل بتوجيها . ففي رأيها ان اغناطيوس قد حوكم واستقال وان فوتيوس قد تسلم تسلماً قانونياً كرسيه ولا سبيل لاعادة النظر في كل القضية .

واجاب الامبراطور الذي كان ميالاً للمسالمة : « اننا نسمح باعادة درس القضايا العائدة للبابا وذلك تكريماً للكنيسة الرومانية ولقداسة البابا نقولا في شخص نائبيه » وقال بولس اسقف قيسارية (Césarée) الناطق باسم الكنيسة البيزنطية « لقد اصدر المجمع حكمه على اغناطيوس فدعواه في كنيستنا قد انتهت ... ومع ذلك نوافق بل رضانا على ان يعاد النظر والحكم فيها في سبيل تكريم القديس بطرس وقداسة البابا المسكوني نقولا (ص ١٢٧ — ٨) فشل اغناطيوس وعلائم التأثير بادية على وجهه واصرّ المندوبان البابويان (١٣٢) على عزمها لاعادة النظر في دعواه بصفة كونها يمثلان الحبر الروماني مستندين الى قوانين ساردیك « Sardique » التي يستفاد منها ان لاسقف روما صلاحية اعادة

النظر في دعوى اي اسقف كان - فرد عليها اسقف اللاذقية (Laodicée) باسم كنيسة بيزنطية بقوله « ان كنيستنا نفسها لتغتبط بذلك وهي لا تتابع ابداً ولا تستا. » ولكنه كان قد تثبت بأسف ان اغناطيوس كان قد ازدرى طلبين وجههما اليه مندوبا البابا ليبرئ نفسه فاقترح موفدو الملك ان يوجه اليه طلب ثالث حتى اذا اصر على موقفه حوكم وفقاً للاصول القانونية (ص ١٣٢—٣٣) اما مندوبا البابا فاعلنا انهما لا يريدان الا اتباع العادات الرومانية . . . وعندما ابدى بعض الناس دهشتهم من ملاطفتها البطريرك السابق كل الملاطفة وكان يتفوّت[1] عليها حتى اهانتها اجاب المندوبان الرسوليان نحن لا نريد مقاضاته على الاهانات التي الحقها بشخصيها بل لتجاوزه على القوانين فبات مذنباً حيال الكنيسة — واردف دفورنيك « Dvornik » قائلاً انها لاجابة صدر ليست من ذوق الآباء لان اسقف اللاذقية قد صرّح : « ان لكنيستنا عاداتها المغايرة لعادات كنيستكم (ص ١٣٣) واما امبراطورنا القديس فخاضع لارادتكم » فتدخل رُسل الامبراطور ووضعوا فوراً حداً لتلك المناقشة باعلانهم اعلانا قاطعاً : « اننا لا نريد المحاكمة بحسب عاداتنا بل وفقاً لسلطان القوانين ودستور الكنيسة الرومانية » .

وافضى رفض اغناطيوس حضور الجلسة الثالثة التي ترئسها الامبراطور وبارداس الى اصدار الامبراطور امراً بجلبه اليها حيث اخذ ينكر صلاحية مندوبي البابا (ص ١٣٤) « Ego non appellavi... quid vultis judicare» .

وعلى رغم ما الحّ عليه به الامبراطور والآباء الذين اعترفوا بحلّ خاطرهم بمندوبي البابا كقاضيين شرعيين اقتصر اغناطيوس بالجواب عليهما متهكماً — وقد صدر الحكم النهائي عليه في الجلسة الرابعة ونقض المندوبان الحكم الذي اصدره بحق اسبستاس (Asbestas) وجماعته ومن ثم طالبا بان يؤدي ٧٢ شاهداً الشهادة على عدم مشروعية انتخاب اغناطيوس وعقب بعض التردّد بالنظر الى غرابة هذا الطلب فقد نزلوا عند ارادتها حول هذه النقطة . فابرم المندوبان الرومانيان الحكم ونزع عنه الشماس بروكوب « Procope » شارات البطريركية

---

١) يقال فلان يتفوت على ابيه في ماله اي يبذره بغير اذنه .

فاطاع اغناطيوس فسمح له بالاقامة في قصر بوزيس « Posis » (١٣٩) الذي كان لوالدته .

والآن لا بدّ لنا من تقدير تصرّف المندوبين (ص ١٤٠) .

يقول اتباع اغناطيوس ان جماعة فوتيوس قد رشو المندوبين وتوسلوا باعمال العنف — وينكر دفورنيك عليهم هذه المزاعم ويقول : الحقيقة ان المندوبين قد قاما باعمال اكثر مما تقضي عليهما به التعليمات التي معهما فقد كانت تقضي عليهما تلك التعليمات بان يقوما بالتحقيق لا بأن يصدرا الحكم النهائي المحتفظ به لشخص البابا بنفسه.

فكيف يمكننا ان نعلّل انهما اعتبرا نفسيهما مفوضين في الامر وخالفا التعليمات التي اعطيا اياها ؟

يجيب دفورنيك على هذا السؤال جواباً فيه دقة كبرى وهو جواب موضوعي برمّته وهو الجديد في هذا الامر . ومفاده ان المندوبين بعد ان اقاما مدة طويلة في بيزنطية رأيا فيها ان الحالة الفكرية لم تكن كما كانوا يتخيّلونها في روما وان حزب اغناطيوس لم يكن كبيراً كل الكبر وان انصاره لم يكونوا كما يدعون : انهم لا يستسلمون فيما يوجب ملامتهم ولاسيما ان محاكمة مندوبي البابا لبطريرك القسطنطينية وحكم ممثلي الكرسي الروماني عليه قد أيد حقوق كرسي روما التاريخية حتى على بيزنطية التي لم تكن تنكرها ضمناً لانها كانت تلجأ غالباً وتطلب تدخله وتقبلها . اما في هذه القضية فان هيبة التسلط التي استخدمها فنّدت على البيزنطيين الذين كانوا يريدون المناقشة ولا يرغبون في قبول حكم كرسي غريب كما هو قبل ان يستسلموا الى اقوال المذنب .

ولندع الكلام لدفورنيك (ص ١٤١) : « لنفكر في المراد منها بصفة كونها ضيفا الدولة ، لقد كان رادوالد وزكريا عالمين قانونيين ضليعين وكانا مطلعين اطلاعاً كافياً على سياسة نقولا الاول الدينية ليدركا ان العمل الذي كان صنعها ينطبق على رغبة سيدهما الباطنية وان البابا الذي عرف ان يفرض سلطانه على جميع الاساقفة الغربيين واخمد رغائب كنيسة الفرنك الاستقلالية وهي قوى الكنائس الغربية ، من المؤكد سيقدر لها عملها بقيمته الحق وكانا يعلمان ايضاً ان البابا لم يكن يريد ان يخوّل ممثليه حق اصدار القرار الاخير

ولاسيما في قضية اغناطيوس التي احتفظ فيها ببعض الحق لنفسه فلذلك عارضا طويلاً طلب الامبراطور الذي لم يوافق على عودة انعقاد المجمع الا على شرط ان يفصل في الجلسة نفسها في القضية فصلاً حاسماً .

ولم تكن تلك المعارضة مستحبّة لدى ميخائيل وتدارك ذلك ، ومن دون شك افهما انهما اذا استمرا على اصرارهما فالامبراطور يقلع الاقلاع كله عن فكرة المجمع وعند ذلك لا يتمكّن نقولا الاول ابداً من ان يسمع صوته في قضية اغناطيوس . وحيال هذه النتيجة التي بدت لهما ، وهما العالمان القانونيان نتيجة رئيسية عقدا النيّة على تجاوز صلاحيتها وعلى ان لا يقوما بعمل المحققين فقط ولكن بعمل القضاة . ويعود اليهما الفضل في اعتراف كنيسة القسطنطينية اعترافاً كاملاً وعن طيبة خاطر بحقوق الحبر الروماني في ان يحاكم بطريركاً بيزنطياً ... والكنيسة البيزنطية اذا سمحت بمحاكمة اغناطيوس امام ممثلي البابا فانها قد سلمت للكرسي الرسولي باكثر من حق الاستئناف اليه وقد رأينا البطريرك الاسبق لا يستأنف الى الكرسي المقدس .

وهذه النتيجة يجدر بها ان تفوز ببعض الامتيازات التي قدمها رادوالد وزكريا على امل ان يرضى عنها البابا .

ومن الاكيد انه لم يكن بالاستطاعة تلاوة رسالة البابا الى الامبراطور في المجمع بنصها الاصلي فعدّلا فيها وحذفا منها خاصة الفقرة التي احتفظ فيها البابا لنفسه بحق الحكم النهائي ... واتفق لمثل هذا الامر ان حدث في المجمع السابع . . . اذ انه لم يكن ممكناً تلاوة رسائل البابا هدريان الاول (Hadrien I) بحرفيتها امام الآباء فعدّلها مندوباه ومع ذلك لم يرَ البابا في ذلك العمل شيئاً يؤاخذون عليه .

واذا ما اكملنا الرواية في هذه السابقة ولاسيما في النتيجة التي جاء بها رادوالد وزكريا للبابا الا وهي اذعان الكنيسة البيزنطية لحكمه فالمسؤولية التي تقع على عاتقهما بسبب هذه الخدعة التي ارتكباها « اذ اصبح ان كان ثمت ما نسميه خدعة» فانها لمخففة كلّ التخفيف .

هذه هي النتيجة التي وصل اليها دفورنيك .

فكيف استقبل نقولا الاول مندوبيه عند عودتهما ؟

لقد وصل مندوبا البابا الى روما في خريف سنة ٨٦١ وهما يحملان رسالة من فوتيوس . واطلعا نقولا الاول على الاسباب التي اجبرتهما على ان يشطا عن مهمتهما . فلم يستطع البابا الّا ان يتأكد مما احرزا من انتصار للكرسي الرسولي على البطريرك الشرقي الواسع النفوذ .

ويبدو انه لم يكن غير منشرح الصدر على مندوبيه لانه كلف وادوالد الاضطلاع بمهمة كبرى في البلاط الفرنجي بيد ان نقطة واحدة لم تصادف استحساناً لديه ! لان المندوبين لم يفوزا بشيء فيما يختص ببلغاريا وايليريكوم ومع ذلك لم يكن قد انقطع امل نقولا الاول في هذا الصدد : لان فوتيوس اذا اراد ان يعترف به الحبر الروماني فما عليه الا ان يتزل عند رغبته حول هذه النقطة . . .

وقد اعلن البابا قراره هذا لبطاركة حلب وانطاكية واورشليم الشرقيين ليجعل لكلمته وقعاً اعظم فدعاهم الى ان يطبقوا موقفهم على موقف روما وبات عشاً ينتظر الجواب . — وما تلقى بدلا منه الا الراهب تيوجنوست « Théognoste » الذي قدم من القسطنطينية تصحبه حاشية من اتباع اغناطيوس الذين جعلوا واجبهم استمالة البابا الى جانبهم — فلم يفلحوا الفلاح كله في ما عقدوا النية عليه ! فعقد البابا مجمعاً في روما (٨٦٣) دُرست فيه اعمال مجمع بيزنطية لسنة ٨٦١ فليمَ المندوبان وحُرما ونُقضت اعمال المجمع البيزنطي .

فكيف نفسّر هذا الانقلاب المفاجئ ؟ يعتقد دفورنيك ان لا جواب على هذا الانقلاب المفاجئ غير تقرير تيوجنوست المؤثر الذي صوّر فيه اغناطيوس الرجل المرغوب فيه في بيزنطية كما صوّر اعادته مدعاة للامل في ان يعمل على ردّ ايليريكوم اعترافاً منه بالجميل . اما نقولا الاول فدعدغه الوهم !

وقد تلقى البابا في اواخر صيف ٨٦٥ رسالة جديدة اللهجة من ميخائيل الثالث يتلوّم فيها عليه ويقول له انه لم يقدر الامتيازات التي أعطيها الكرسي الروماني بتخويل مندوبيه حق محاكمة اغناطيوس حق قدرها وطلب من نقولا الاول ان يُرجع تيوجنوست وصحبه الذين قوموا له محاومات خاطئة الى القسطنطينية والا اتخذ تدابير عسكرية ليتزلهم عند رغبته .

ولقد اتخذ الخلاف طابعاً خطراً — اذ وبات على البابا ان يجيب ! وفي ذلك التاريخ كان نقولا الاول مريضاً مرضاً شديداً . وقد يكون من المحتمل ان كُلف اناستاس قيم المكتبة ان يكتب الجواب بناء على تعليمات البابا العامة التي قدمها له . — ولقد اصبحت تلك الرسالة من اهم الوثائق في تاريخ البابوية ولذلك لا نرى مندوحة عن تبيان ما كانت تحويه باختصار .

في القسم الاول منها — لام نقولا الاول ميخائيل على تحدثه عن خليفة بطرس بشكل مهين — انه لامر لم يسمع بمثله ان يقوى امبراطور على ان يأمر البابا ليرسل مندوبيه ولكنهم قد كانوا يرجونهُ بكياسة ان يتنازل بايفاد ممثليه الى المجمع — اما فيما يتعلق بالبطريرك اغناطيوس فليعلم الامبراطور انه لم يُعزل حتى الآن اي بطريرك كان او حكم عليه بدون موافقة كرسي روما . اما الحكم عليه فغير عادل لانه ليس بمقدر من كان ادنى منه ان يقاضيه وانما ذلك لمن اختصاص محكمة عليا : من صلاحية الكرسي الروماني.

وفي القسم الثاني . — حدّد البابا تحديداً قاطعاً حقوق الكرسي الرسولي التقليدية التي لا يمكن نسخها لانها الحقوق التي اعطاها المسيح نفسه القديس بطرس وهو قد سلّمها خلفاءه ، وهذه الامتيازات تخول البابا السلطان على جميع الكنيسة وحتى حق السهر على كنيسة القسطنطينية وهذا هو السبب الذي يتمّ من اجله البابا لقضية اغناطيوس التي احتفظ بحق الفصل فيها لنفسه . — ومن حقه ان يستدعي الى روما اي اكليريكي كان وبناء عليه طلب من اغناطيوس وفوتيوس ليرسلا اليه ممثليها ورجا الامبراطور ان يوفد اليه أيضاً ممثليه — فلا يتوجس الامبراطور لان البابا سيكون قاضياً عدلاً.

ولم يَدَعْ نقولا الاول قلبه ينخلع امام تهديدات الامبراطور فقد كان عارفاً حق المعرفة حقّه وواجبه وعازماً على ان يكون برّاً بكلا الاثنين (ص ١٦٧) . وانه لمن الصعوبة بمكان ان نقول ما كان لتلك الرسالة من وقع في بيزنطية — ومهما فكّر الكثيرون من مؤرخي الكنائس المنشقة ولاهوتيها

في هذه الرسالة فانها لم تكن تحوي شيئاً جوهرياً – جديداً بشأن رئاسة كرسي روما (ص ١٦٢) . ولقد سنحت الفرصة امام نقولا لاثبات هذه السلطة اثباتاً بعيداً عن معترك الظنون وقد اعترف بها في كل الاجيال فاعلنها بصلابة لا مثيل لها قد كانت في حزم طبع ذلك البابا الشديد الاسر حتى خيل للكثيرين انهم يسمعونه للمرة الاولى .

ومن الخطأ ترجيحاً الزعم ان نقولا الاول كان مبتدع قضية رئاسة الكرسي الروماني في شأن السلطة لان ذلك مرجعه الى الانجيل . اما اذا كانت لهجته خرشاء[1] وفي غير مناسبتها فذلك مما نسأله به بسهولة بيد انها قد اصابت رهيف الشعور البيزنطي في الصميم ذلك الشعور الذي تصلّب في عناده تصلّباً حمله على الازراء بسلطة اعترف بها التاريخ .

وقد قال دفورنيك لم يكن البيزنطيون يجهلون التاريخ ولكنهم لم يكونوا يستشهدون به الا متى جاء في مصلحتهم فقط . فالافكار التي اعرب عنها نقولا الاول في رسالته كانت صحيحة كل الصحة بذاتها بيد ان هذه الافكار نفسها (ص ١٦٨) لم تكن قد بلغت بعد تطورها درجة دقيقة الوضوح في بيزنطية تحاكي وضوحها في الغرب . – وان ما قاله نقولا الاول عن بطريركية القسطنطينية انها لم تكن من اصل رسولي وانها تأتي بعد بطريركيتي الاسكندرية وانطاكية قد عض اثرة (انانية) الكثيرين ، اما فوتيوس الذي لم يكن جاهلاً التاريخ فلم يكن بمقدوره الا ان يرى الحق في قول البابا حول هذه النقطة .

وعلى كل فقد كان من الحمق التذكير بكل هذه الامور لكنيسة كانوا يسعون لاحلال السلام فيها والتحدث معها .

اما الامر الذي طفح الكيل بصدده فهو قضية بلغاريا ، او عقدة الخلاف الدائم . فقد كان بوريس (Boris) يريد بطريركاً وفوتيوس لا يتزل عند رغبته فادار بوريس وجهه نحو روما فبعث اليه اسقفين مع مرسلين وضم اليهم البابا

---

١) الاخرش الصاب المئن وقد استخدمنا هذه اللفظة لترجمة كلمة « maladresse » الفرنسية .

ثلاثة مندوبين كان عليهم ان يكتفوا طريقهم الى القسطنطينية لعقد مجمع . ولكنهم كانوا على يقظة في بيزنطية . وكانوا لا يجهلون ما يجري ببلغاريا — وطفقوا ينتظرون المندوبين اكثر من اربعين يوماً في الحدود وما انقطعوا في تلك الاثناء عن العمل في القسطنطينية فقد قرروا انه اذا كان المندوبون يريدون عبور الحدود عليهم ان يوقعوا سلفاً اعترافاً بفوتيوس كبطريرك — ولما لم يكن باستطاعة المندوبين النزول عند هذا الشرط قفلوا راجعين الى روما (ص ١٨١) وكان لا بدّ للبابا من الاستسلام الى التفكير ، ومن المؤكد انه كان بعيداً عن الاشتباه بما كان يعدّه ضدّه فوتيوس الذي عقد مجمعاً في صيف (٨٦٧) ساهم فيه اساقفة كثيرون وحاكموا نقولا الاول واسقطوه عن كرسيه وحرم .

واتفق في تلك المدة ان نودي بلويس الجرماني الثاني(Louis II le Germanique) امبراطوراً بحضور ميخائيل الثالث وباسيليوس (وهذا الاخير كان قد اغتال بارداس واتخذ مركزه في الحكومة) فأمل فوتيوس بان يكتسب من جراء تلك التدابير مساعدة الغربيين ولويس الثاني وجزءاً من مطارنة اللاتين الذين كانوا مستائين من تصرف الحبر الروماني فوجه رسالة رعائية الى بطاركة الشرق شجب فيها بعض العادات الغربية (كصيام السبت وتبتل الكهنة . . . وما شاكل) واضافة الانبثاق من الابن (Filioque) الى قانون الايمان .

فيا له من عمل قد تمّ وما هو الا هُولة من الهَوَل[1]

ولقد علق دفورنيك على موقف فوتيوس (ص ١٩٢) بقوله انه كان موقفاً لا يعدو حدود اللياقة حيال نقولا الاول حتى ذلك العهد ولكنه قد غيره بتغيير وضع قضية بلغاريا، بيد ان هذه الاسباب ليست كافية كما يقول دفورنيك لعذره على بادرته الاخيرة : فقد ارتكب ذلك الامر الذي لم يسمع بمثله في كل التاريخ ! (ص ١٩٣) اذ جرأ على اصدار حكم بحق البابا ! فعرض للخطر بذلك الوحدة المسيحية لانه امر لا يغتفر ولا سبيل لتبريره . — وهو ما ندعوه في التاريخ انشقاق فوتيوس الاول .

---

١) ما هو الا هُولة من الهَوَل وذلك ان تنامى في الفتح والهُولة ما يفزع به الصبي وقد استعملنا هذه العبارة لترجمة كلمة monstrueux الفرنسية .

ويجمع كل المؤرخين من دون استثناء على اعطاء الحق لدفورنيك في مثل هذا المقام.

واردف دفورنيك ملمعاً الى بعض الاعتبارات التي لها قيمتها والتي لم تتفق عليها جميع الآراء حتى الآن.

ومما قاله انه لو كانت بادرة فوتيوس لا تغتفر واذا كان لا بد من شجب رسالته الرعائية المفعمة تيهاً وحقداً فمن الواجب ان لا نغالي بقيمتها ولا باهميتها كما فعل بعض المؤرخين.

ومن رأي دفورنيك ان فوتيوس لم يهاجم الكنيسة الرومانية ولا رئاستها وانما شخصية نقولا الاول. وانها ليست الا حرباً شخصية. — واول من اعطى هذه البادرة قيمة لم تكن لها كان بارونيوس! ومع ذلك لقد اصبحت بادرة فوتيوس سواء اكان محق او بغير حق فعلاً استند اليه بعد ذلك واقتدى به جميع الذين مزقوا بدورهم وحدة الكنيسة. فرسالته الرعائية ستكون منجماً لا ينضب يستمد منه المنشقون في يومنا الحاضر سلاحهم دائماً ضد روما.

(ص ١٩٣) ويعتقد فورنيك ان بادرة فوتيوس تلك كانت اقبل اوانها وكانت طائشة متهورة. فقد اخطأ باهماله موقف الانتظار الهادئ وكانت العناية الالهية تعمل على تدبير الامور =. ولقد مات نيقولا الاول في ١٣ تشرين الاول ٨٦٧ وهو لا يزال يجهل الحكم الذي اصدره مجمعه البطريركي الجامع. فان جميع هذه الاحداث كانت معروفة في التاريخ. اما بحوث دفورنيك العلمية فجاءت تؤيدها. — اما تأويل بادرة فوتيوس المشؤوم تأويلاً ملطفاً فربما لا يعلق باذهان جميع الناس.

فماذا كانت ردة الفعل في روما؟

يبدو انه عقب وفاة نيقولا الاول ترتسم طلائع تبدل في سياسة الكرسي المقدس الشرقية (ص١٩٤) فذكريا الاناني Zacharie d'Anagni الذي كان حكم عليه نيقولا الاول قد نال عفواً من خلفه وكان يعرف الشرق وكان بمقدور البابا الجديد ان يستفيد من خبرته في هذا الصدد. والرهبان اليونانيون الذين لجأوا الى روما وكان نيقولا الاول يؤمن لهم يومياً وجبة طعام في قصر لاتران

(Latran) كانوا يتجنبون ان يحتكوا ايما احتكاك بهادريان الثاني (Hadrien II) الذي اعتقد ان الضرورة تقتضيه القيام ببادرة تودد نحوهم لتخفيف المشادة فأدب لهم مأدبة في العشرين من شباط سنة ٨٦٨ وما استنكف عن ان يحسب الحسرة لهم بيده وطمأنهم في احد الانخاب الى ان لا يخشوا شيئاً وانه سينهج سياسة سلفه نفسها . اما في روما فلم يكونوا يعرفون شيئاً عن التبدّل الذي طرأ في بيزنطية ولا شيئاً عن نكسة فوتيوس ضد نيقولا الاول . — فماذا جرى ؟

٤ — باسيليوس الاول ومجمع ٨٦٩—٨٧٠

انتزع باسيليوس العرش الامبراطوري في الرابع والعشرين من شهر ايلول سنة ٨٦٧ وكان قد اغتال قبل ذلك بثلاث سنوات ٢١ نيسان سنة ٨٦٤ بارداس ومن ثم ميخائيل الثالث فلم يكن باستطاعته طبعاً التعويل على الحزب الذي كان يناصرهما لكي يتمكن من الحكم فعزم على قلب سياسة سلفه الدينية رأساً على عقب : ونفي فوتيوس الى احد الاديار وعاد اغناطيوس الى تسنم الكرسي البطريركي (٢٣ تشرين الثاني سنة ٨٦٧) .

وكان من الواجب اعلام روما بالامر لانها كانت تجهل كل شيء . ولكن ما هو العمل لاجتلاب عطفها ؟ فلقد كان الجميع في القسطنطينية قد اشتركوا في مجمع فوتيوس المشؤوم وتواطأوا معه على « ان الكرسي الاول لا يستطيع احد محاكمته » وكان ذلك المبدأ الذي تقيّدوا به ولقد شهد باسيليوس ذلك المجمع الذي قد يكون «لصوصية جديدة» ! فاقدم على الغاء اعمال ذلك المجمع الزائف لكي لا يستطيع استخدامها احد ضده وارسل على جناح السرعة الى روما انتيموس (Euthyme) وزوّده رسالة الى البابا تطلعه على مجرى الحوادث ولكنه كان يجهل موت نيقولا الاول فاهتم خلفه هادريان الثاني في هذه القضية . وانقضى اكثر من سنة ونصف السنة بالذهاب والمجيء بين روما وبيزنطية . . . ولما اعتقد هادريان الثاني انه اطلع اطلاعاً وافياً على الامر عقد مجمعاً في كنيسة القديس بطرس (١٠ ك٢ سنة ٨٦٩) اما حزب فوتيوس فلم يستطع اسماع صوته لان ممثله بطرس كان هلك غرقاً في الطريق فدعا البابا مرّات عدة الراهب ميتوديوس (الوحيد الذي ظل حياً من الذين صحبوا بطرس) ليحضر ويدافع

عن فوتيوس فابى فاهمله البابا وحرم رسمياً فوتيوس واصدر امراً باحراق مقررات المجمع المشاغب التي جاء بها موفدو الامبراطور (ص ٢١٠) وقرر ان ينعقد مجمع (كان قد طالب بعقده باسيليوس ايضاً) في القسطنطينية (هو مجمع ٨٦٩ — ٨٧٠ المدعو بالثامن المسكوني) برئاسة الاسقفين دونات واسطفان والشماس مارن. وكان هؤلاء يحملون رسالة الى باسيليوس واغناطيوس تدعو الامبراطور الى تنفيذ حكم الحبر الروماني بحق جميع الذين تواطأوا في الحوادث الاخيرة.

ولم يكن باسيليوس يريد الا شيئاً واحداً الا وهو استتباب النظام والسلام فكان مستعداً ليتقيد بالمطالب الرومانية بيد ان مصلحته لم تكن من جهة ثانية تقضي باغضاب انصار فوتيوس باستخدام الصرامة معهم لان حزبهم كان قوياً فلذلك الحّ على البابا بان يكون متسامحاً حيالهم.

والباعث على الشجى في هذه القضية هو ان باسيليوس لما كتب تعليماته لموفديه كان يجهل ما طرأ من تبدل في روما من جراء وفاة نيقولا كما كانوا يجهلون في روما ما جرى على ضفاف البوسفور.

وقد شهدنا هذا الاختلاف (ص ٢١٢) بين مقاصد باسيليوس ومقررات البابا للمرة الاولى في اثناء مقابلة المندوبين الرومانيين في البلاط.

وكان مندوبو البابا مزودين برسالة «Libellus» تنص على عدم قبول احد في المجمع قبل ان يوقع عليها سلفاً — مما افضى الى الدهشة العامة في بيزنطية فاجاب الامبراطور والبطريرك انه لامر جديد وانهما يريدان ان يطلعا على مضمونها — فاطلعا عليها — وكان ذلك النص يشتمل على «قانون ايمان» البابا هورميسداس Hormisdas (ص ٢١٣) الذي وقعه الاساقفة الشرقيون المرتدون عن انشقاق اكاس «Acace». وكان قد ادخل فيه بدلاً من حرم المنشقين حكم طويل وحادّ اللهجة بحق فوتيوس وانصاره. ومن الطبيعي ان الرئاسة الرومانية كانت مؤيدة فيه تأييداً قوياً — فقبل باسيليوس نصه وانما ساءه القالب المفرغ فيه وجعل امر التوقيع عليه شرطاً لا ندحة عنه للقبول في المجمع — وكتب دفورنيك في هذا الصدد (ص ٢١٣) قائلاً: انه بالنظر الى هذا الامر لم يبق اي سبب كان من الاسباب لانعقاد المجمع بعد ان قضى

في هذا الشأن سلفاً . وما كان ذلك يتفق ومقاصد باسيليوس الذي اراد ان يبحث المجمع من جديد القضية وان يصدر مندوبو الحبر الروماني حكمهم باسم المجمع والبابا . وتوقع الامبراطور ان يفضي اسلوب البابا ومندوبيه في تصرفهم الى تعقيد الامور وافساد خططه » — وقد اظهرت الاعمال التالية صدق حدسه .

ولقد جاء المندوبون من روما والوهم يدغدغهم وكانوا من المتفوقين في اللاهوت والحق القانوني ولكنهم لم يكونوا يفقهون امراً اكيداً عن نفسية ذلك الشعب الماهر بنسج حبائل الدسائس المحكمة . وكان البيزنطيون يرغبون في المناقشة اما المندوبون فقدموا لهم حكماً جاهزاً فكان ذلك اذلالاً لآباء المجمع . وبتلويح المندوبين تلويحاً ظاهراً كل الظهور بالاوامر التي تلقوها من روما وبتعرضهم غالباً الى ذكر الرئاسة الرومانية لم يفلحوا الا على استفزاز ردات افعال الانقباض النفساني لدى البيزنطيين .

ولقد عرتهم الدهشة لدن سماعهم البطريق بانس « Baanès » (الذي ترأس في الدورة الثامنة المجمع باسم الامبراطور) يعرض رأيه الغريب القائل بايجاد بطاركيات خمس اي نظام خمس بطاركة يديرون الكنيسة الجامعة قائلاً ان الله قد اسس كنيسته على خمس بطاركيات واكد في الاناجيل انها لن تسقط ابداً لانها رؤوس الكنيسة . — أفلم يؤكد المسيح ان ابواب الجحيم لن تقوى عليها ؟ (ص ٢٢٠) .

وادرك المندوبون الذين اعترى الحزن عزيمتهم انهم اذا تقيدوا بحرفية التعليمات التي لديهم انهم واصلون الى عكس النتيجة التي تسعى اليها روما نظراً الى الحالة الفكرية والبيئة النفسية القائمة ولقد كانت الطريقة التي اتبعها المندوبون من حيث وجهة نظر البيزنطيين طريقة غير عادلة وحزبية (ص ٢٢١) فهبوا بحكم غريزتهم الى الانتقاض على النظرية الرومانية التي عرضت بحسب رأيهم بصورة فظة — فبدلاً من تهدئة الخواطر قد اسخطوها — ويا له من برهان قاس ذي حدين ! — ويخيل الينا ان اولئك الفرسان المدججين بالحديد المتمنطقين بالمراسيم وقوانين المجامع تمنطقاً قوياً انهم سيجبون رماة خفافاً مرنو الحركات العسكرية الدائمة لا يحلمون بخدع جديدة حتى كان من المستحيل اخذهم ! !

وشاء المندوبون ان يقوموا بواجبهم ويتقيدوا بتعليماتهم بكل شجاعة واستقامة ولكن لسوء الحظ من دون لياقة – وكان لا بدَّ لهم من ان تراود ذاكرتهم ما صار اليه سلفاهم رادوالد وزكريا – ولقد مثل امامهم فوتيوس فتلوا عليه الاضبارة المشتملة على الاحكام التي اصدرها بحقه نقولا الاول وهادريان فلم يستطع انكار ما عزي اليه من الاعمال واعتصم بصمت عميق، وبناء على اقتراح المندوبين صدر الحكم بالحرم عليه ومن ثمَّ جرى توقيع اعمال المجمع وختمت الجلسات.

وقصارى القول ان ما فاز به مندوبو سنة ٨٦٩ لمصلحة نفوذ روما كان اقل جداً مما توصل اليه مندوبا سنة ٨٦١ لان ما يمكن الفوز به من اليونانيين عن طريق المسالمة لاكثر مما يستطاع الحصول عليه منهم عن طريق سوقهم بالقوة (ص ٢٢١). ومهما كان ذلك الحكم عادلاً فلم يكن انتصاراً للمندوبين واذا بادر الى اذهانهم ان النظام والسلام قد استتبَّا فقد كانوا مخدوعين لان مفاجأة اخرى كانت تنتظرهم عندما اعتقدوا انهم قد احرزوا الظفر (ص ٢٢٢).

وفي شهر شباط جاء القسطنطينية وفد بلغاري: وهأ هي ذي قضية الايليريكوم ستبعث برمتها مجدداً: لان بوريس كان يريد فورموز (Formose) رئيس اساقفة لكنيسته لانه كان مرتاحاً اليه كل الارتياح، اما روما فلم تتجه بسؤله فجاء الى بيزنطية لمقابلة المندوبين والبطريرك اغناطيوس وكان البطريرك يعرف نيات روما فتجنَّب الانزلاق في هذه الورطة وحكَّم في الخلاف ممثلي البطريركيات الشرقيين الذين اصدروا طبعاً حكمهم في مصلحة كنيسة بيزنطية فرفض المندوبون حكمهم فلم يكترث اغناطيوس لرفضهم بل سام رئيس اساقفة وعشرة اساقفة وارسلهم مع كهنة اخرين الى بلغاريا، وما اطلع هادريان الثاني على الامر حتى حرم اغناطيوس وكل من جرأته نفسه في بلغاريا على اغتصاب السلطة الاسقفية (ص٢٢٢–٢٢٩).

وادركت المنيَّة هادريان الثاني قبل ان يرى ما تفرَّع عن هذه القضية التي قبض عليها بيد حديدية خليفته يوحنا الثامن (٨٧٢–٨٢) ليصل بها الى خاتمة حسنة.

٥ ـ يوحنا الثامن وفوتيوس

لم يخفف بجمع انصار اغناطيوس ايما تخفيف التوتر في بيزنطية ورأى اغناطيوس نفسه امام اكليروس كان وفيًا لفوتيوس وفاء اعتقد معه باسيليوس انه من الضروري ان يطلب من البابا ان يجعل التدابير المتخذة ضد الاكليروس المتعلق بفوتيوس حليمة وتقدم اغناطيوس بعريضة يطلب فيها ذات الطلب فرفض هادريان الثاني ان يرجع عن مقررات نقولا الاول ومقرراته هو بسبب سلوك اغناطيوس في القضية البلغارية وزد على ذلك فان خليفة هادريان الثاني، يوحنا الثامن، اشتكى على اغناطيوس شكاية اعظم خطورة: ومآلها انه قد استخدم في بلغاريا رجال اكليروس معظمهم سامه فوتيوس .

وقال دفورنيك « لو كانت هذه المعلومات مضبوطة فاننا نرى فيها ما يثبت اثباتاً جديداً اخفاق مندوبي الحبر الروماني في مجمع اغناطيوس وسياسة البابا هادريان الثاني الشرقية لان الشدة التي استخدمها البابا واستخدمها مندوبوه خاصة بالقسطنطينية قد اسخطت الامبراطور والبطريرك واعقل اصدقائه»(ص٢٣٢).

واتفاق فوتيوس مع باسيليوس واغناطيوس قد اتى على آخر اثار « الفوز » الروماني في بيزنطية . — ومن المؤكد ان فوتيوس قد عومل معاملة قاسية في بدء عهد نفيه الى سكجه (Skegsè) فتذمر خاصة لكونه مُبعَدًا عن كتبه الغالية عليه ومن ثم عرف رويدًا رويدًا بفضل طبعه الهادئ المسالم اياماً اشد هناءة ، وظلت اواصر الصداقة قائمة بينه وبين موظفين عدة ما برحوا في اعمالهم في ظل العهد الجديد (١٣٤) ولم يفتأ الاكليريكيون يحتفظون بالعطف عليه فاستمر بواسطتهم يدير عن بعد كنيسته .

ووجد باسيليوس نفسه مرتبكاً كل الارتباك في تلك الاوضاع . فانه لم يكن يريد ذلك فروما ومندوبوها لم يجدوه اية مساعدة كانت، على حين ان اكليروس فوتيوس كان يقوم بمهارة بأعماله ، ففي كل سانحة كان يؤكد لباسيليوس ولاءه . فلم يبق امامه الا امر واحد ليعمله وهو اغتنام مساعدة فوتيوس واصدقائه .

وتم ذلك التحول منذ سنة ٨٧٣ واصبح فوتيوس صديق الامبراطور المخلص

الذي اناط به تعليم ابنائه وخصّص له غرفة في القصر الامبراطوري وربما استأنف ايضاً التعليم في جامعة مانيور (Magnaure) (٢٣٥—٦—٧) .

ونفهم من جميع هـذه الامور (٢٣٨) ان اقصاء فوتيوس عن الكرسي البطريركي لم يكن الا موقتاً ليعود الى ارتقائه لاول فرصة . — فان الزمان والسياسة كانا يعملان في مصلحته (٢٣٩) فما كان عليه الا ان ينتظر وكان له من الذكاء ليفقه ذلك وهذا ما فعله .

وبعد ان اتفق فوتيوس مع باسيليوس اتفق ايضاً مع اغناطيوس والتقيا في القصر الامبراطوري وركع كلاهما على ركبتيه وطلب السماح من صاحبه (ربما حوالي ٨٧٦) وهذا ما يرويه فوتيوس نفسه في تأبينه لباسيليوس الذي مات بدوره مقتولاً(٢٤٠)[—ويناقش دفورنيك الاساطير التي نشرها اتباع اغناطيوس ضد اعمال فوتيوس طول تلك المدة ص ٢٤١—٢٤٥] .

وعلى رغم هذا كله لم يكن ذلك الهدوء كاملاً(٢٤٥) لان عدداً كبيراً من الاساقفة والكهنة الموالين لفوتيوس كانوا لا يزالون في المنفى ويعانون الاضطهاد ، اما باسيليوس فكان يودّ الانتباه من ذيول ذلك الخلاف .

ويقول دفورنيك (ص٢٤٦) من المحتمل ان يكون فوتيوس قد اضطلع حقيقة بمهام البطريركية قبل ان يموت اغناطيوس بسنة وان يكون اغناطيوس وافق على ان يخلفه ، فلم يبقَ من معنى للحكم الذي اصدره المجمع بحق فوتيوس بعد ان تم الاتفاق ، وبحسب عادات الكنيسة الشرقية ان الحكم الذي يصدره مجمع لا ينقضه الا مجمع آخر فقد طلب باسيليوس ذلك من يوحنا الثامن ورجاه ان يُرسل مندوبين من عنده (ص٢٤٦—٤٧) فنزل البابا على طلبه املاً انه يرمي عصفورين بحجر واحد: اقرار السلام نهائياً في الكنيسة البيزنطية وتسوية المسألة البلغارية فسلّم في سبيل هـذه الغاية مندوبيه بولس واوجين رسالة الى اغناطيوس يهدده فيها بأقصى العقوبات شدة اذا رفض سحب كهنته من بلغاريا . وذهب المندوبان الى بيزنطية متفائلين .

ويا لسخرية القدر! فان اغناطيوس توفّاه الله في الثالث والعشرين من تشرين الاول ٨٧٧ قبل وصول المندوبين وارتقى فوتيوس السدة البطريركية بموجب الاتفاق المعقود بين باسيليوس واغناطيوس من دون مجمع ولا انتخاب وانما

لتصوّر انذهال المندوبين وارتباكهما حيال هذا الموقف الذي لم يكن منتظرًا وعما لا تعليمات لديهما بشأن الطريقة التي يجب ان ينتهجاها كما انهما تذكّرا ايضاً مآل رادوالد وزكريا ، فماذا يعملان ؟

ولما رأى باسيليوس انه لم يأته رجال مطلعون اطلاعاً اوسع من خبرة المندوبين الموفدين في الامور البيزنطية (كزكريا رفيق رادوالد وكان قد طلبه خصيصاً) ادرك انه لم يبق عليه الا ان يفعل شيئاً واحداً وهو ان يكتب الى يوحنا الثامن وهكذا فعل هو والبطريرك الجديد. في تلك الاثناء. وقف المندوبان «مكتوفي الايدي»لا يقومان بعمل خشية الانزلاق في الورطة، فرأى يوحنا الثامن في تصرفهما ذكاء قليلًا اذ حرمه (٢٥٧) معلومات مضبوطة حول الحالة حتى بات عليه ان يكتفي ببيانات الامبراطور والبطريرك،فقبض بعزم وبيد قوية على القضية وكانت لديه مصاعب اخرى في الغرب وكانت مساعدة الملك له ذات قيمة كبرى . ففكّر انه يستطيع في سبيل المصلحة العامة التغاضي عن بعض الاعمال الشاذة واغضاء العين عن الماضي لاحلال السلام في تلك الكنيسة المرزوءة ولكن من دون ان يضحي باي مبدإ عقائدي كان وبأي امتياز كان لكرسي القديس بطرس فقرر الخطة التي سيسير عليها في مجمع روماني .

واننا نعلم تفاصيلها (٢٤٩) من الرسالة التي بعث بها البابا الى الامبراطور واكليروس القسطنطينية وفوتيوس وزعماء حزب اغناطيوس. اما مندوباه فاوليهما تعليمات خاصة في بلاغ (Commonitorium) حمله اليهما الكاردينال بطرس : انه سيعترف بفوتيوس على شرط ان يسمح اولًا المجمع العفو عن سلوكه الماضي وان يردّ بلغاريا ..وكان على المندوبين ان يتبعا تعليماته بذكاء وبعد نظر .

وقد جاءت النصيحة في محلها : فعلى المندوبين ان لا يريا في هذه التوصيات الا ايعازا بفهم الامور اكثر من التقيد بالحرف ليضطلعا بمسؤولياتهما . وجّه المندوبان منذ بدء افتتاح المجمع رفض فوتيوس الجازم للقيام بفعل الاتضاع المطلوب منه فعله امام المجمع انه قد اخطأ لانه اذا كان قد اخطأ فان مجمع ٨٦٩ قد انزل به القصاص اللازم في حكمه عليه ، فأدرك المندوبان انهما اذا ما ارادا ان يتقيّدا بحرفية تعليماتهما فانهما مخفقان لا محالة وما كان باستطاعتهما ان يفكرا في مراجعة روما من جديد .

وكان الامبراطور ينتظر على احرّ من جمر . ألم يلمها البابا على نقصان قوة المبادرة الشخصية لديها ؟ فحاولا طويلًا الوقوف في وجه اهواء الامبراطور ونصائحه وما كان يحضّها عليه ولكنها نزلا اخيرًا بما لها من سلطان عن الشرط المفروض على فوتيوس واكتفيا بأن يطلبا منه كتمويض ان تعود بلغاريا الى ولاية روما . وبات من الواضح في تلك الحالة ان لا يقويا على تلاوة رسائل البابا بنصوصها الاصلية امام المجمع وكان عليهما ان يجعلاها عاشية للظروف الراهنة التي اتضحت لها (٨٥٨ — ٥٩) وبات عليهما ان يتخذا على مسؤوليتهما كما صار سنة ٨٦٧ وسنة ٨٦٩ تحويرًا ملائمًا على ان يطلعا روما بعد ذلك على الاسباب . وفضلًا عن هذا كان عليهما ان يترجماها الى اليونانية . واين كان بمقدورهما القيام بذلك في مكان افضل من مستشارية الامبراطور او البطريركية اذ كانوا يعرفون هناك كيف ينبغي تقديم الامور للبيزنطيين ليجعلوها مقبولة لديهم .

وجاءت التحويرات في رسائل البابا كبيرة وتعجب منها المؤرخون ، ولا يخلو من الفائدة ان نشير الى بعض تفاصيلها (ص ٢٥٩) فقد استاضا في مقدمة رسالة البابا الى باسيليوس لانها بدت لها جافة وزيد الاسهاب في التقريظ الذي وجهه البابا الى الاسرة الامبراطورية زيادة واسعة . . . وما ذلك بالامر الخطير كل الخطورة ، اما الامر الاهم فهو الفقرة التي اشار فيها البابا الى رئاسة سدته وهذه لم يتناولها شيء تقريباً من التبديل . وهاك ما نقرأه في الاسهاب اليوناني (ص٢٦٠) : « وبما انكم ترغبون في اقرار هذا الوفاق ذاته وفي انعام النظر فيه فقد توجهتم بوفديكم وبرسائلكم الى الكنيسة الرومانية المقدسة منتظرين بثبات ان تساعدكم في عملكم وتساندكم مساندة قوية . فانتم لستم اول من فعل هذا فقد اتبعتم عادة الذين تولّوا الامبراطورية قبلكم الطيبة واقتديتم بهم وانه لحقيق ان نبحث عمن علمكم ان تقوموا بعملكم على هذه الصورة : لا شك في ان اول الرسل بطرس هو الذي اقامه المسيح رئيساً على جميع الكنائس عندما قال له : ارعَ نعاجي . وليس هذا كل شيء فهناك المراسيم القدسية والشرائع المقدسة المستقيمة وشهادات الآباء كما تثبت ذلك رسائلكم الالهية المقدسة وانكم لتعملون على هذه الصورة اشعاعاً لايمانكم

الراسخ كل الرسوخ والذائع كل الذيوع اشماعاً اعظم » .

أما قالب الانشاء الاصلي فكان اشد وضوحاً في اعلانه الرئاسة الرومانية واليكم نصه : « انكم تبأ لمثل اسلافكم الاباطرة الشديدي الورع تعربون عن احترامكم للسدة الرومانية وتخضعون لها كل سلطة أيّ لمؤسسها اول الرسل اذ قال له السيد المسيح : ارعَ نعاجي . فانه ان يكون الرئيس الحقيقي على جميع الكنائس وهذا ما تعلنه قوانين الآباء الرئيسية ومراسيم الامراء المستقيمي الرأي وهذا ما تؤيده ايضاً رسائلكم الموقرة كل التوقير (ص ٢٦٠ لمحوظة) .

ولا بد من الاعتراف بان صيغة قالب الانشاء اليوناني توضح فكرة البابا الرئيسية ايضاحاً كاملاً . افليس من الباعث على الدهشة ان نرى ان من كان حتى الان ينظر اليه اجمالياً كعدو ألدّ لهذه الرئاسة لم يمسّ فقرة « شديدة المادة[1] ؟ »

والى ابعد من هذه الفقرة فقرة اخرى قد تقيدت بالنظرية الرومانية بقضية رئاسة السدة البابوية وان ادخل عليها تعديل . وهاك ما نطق به فوتيوس عن لسان البابا : « لقد خيّل الينا انه من المناسب اقرار السلام في كنيسة الله فلذلك ارسلنا موفدينا لكي ينفذوا ارادتكم وان سبقنا قدسكم واقررتم هذا الرجل قبل وصول مندوبيكم . واننا لنقبله (على كل حال) وذلك ليس بسلطاننا وان كان بوسعنا ان نفعله ولكن بسبب المراسيم الرسولية . . .

ولما كان هذا الكرسي الرسولي قد اخذ مفاتيح السما من عظيم رئيس الاحبار الاول يسوع المسيح بواسطة اول الرسل بطرس الذي قال له « لك اسلم مفاتيح مملكة السموات » وان ما تحله على الارض . . . الخ » له السلطان ان يربط ويحل كل شيء . وبحسب قول ارميا ان يقتلع ويغرس ولهذا السبب نفسه وبما اننا نستخدم سلطان رئيس الرسل بطرس نعلنكم مع كل كنيستنا ونعلن بواسطتكم . . . بقية الاساقفة والكهنة وجميع كنيسة القسطنطينية اننا على اتفاق . . . فاقبلوا هذا الرجل بدون ايما تردد ولا يحتجن احد بمقررات المجامع غير المنصفة التي اتخذت بحقه . . . فاننا قد غفرنا له جميع هذه الامور وان كنا

[1] يقال ندّ بعضهم عن بعض اي ذهب كل في وجه .

غير مستحقين بين يدي رئيس الرسل وبواسطته على اكتاف يسوع المسيح حمل الله الذي يغفر خطايا العالم . . . فوطدوا محبتكم وايمانكم وخضوعكم واحترامكم فيه وبواسطته في الكنيسة الرومانية المقدسة . فان من لا يقبله لا يقبل طبعاً مراسيمنا او مراسيم الكنيسة المقدسة الرومانية فانه لم يعلن الحرب علينا ولكن على الرسول بطرس الكلي القداسة او بالاحرى على يسوع المسيح ابن الله الذي كرّم ومجد كثيراً رسله واعطاه السلطان ان يحل ويربط (ص ٢٦١-٢٦٢) . وفي هذه الاقوال وضوح كوضوح اقوال البابا نفسه ولا يذكرها الغرب الا تعظيماً لسلطة البابا وللتدليل على حقه في ان ينقض اي حكم كان . ويقول دفورنيك ان هذ الامر لم يشر اليه حتى الآن من سوء الحظ اشارة كافية .

ورسالة البابا الى البطاركة الشرقيين ما برحت حتى الآن تقريباً سليمة بقلم فوتيوس وما برحت تتضمن الكلمات التي اثبت فيها البابا حقوقه واليك هذا المقطع وفق الطبعة اليونانية :

« ان غيرتكم المقدسة عطفاً قد توجهت الى محبتنا باستشهادها بامير الرسل بطرس لكي نعانق البطريرك فوتيوس الكلي القداسة الذي اعيد الى كنيسة القسطنطينية وان نقبله معنا فهذا ما فعلناه بسرعة وغير طيبة خاطر متقيدين بما قيل في الانجيل للراعي الاول الذي قال له السيد المسيح نفسه « لقد صليت من اجلك يا بطرس لكي لا يتزعزع ايمانك . وانت وقد اهتديت ثبّت اخوانك » . فبخضوعنا للكلام الالهي وبالسلطان الكامل الذي اعطينا لمساعدة جميع المسيحيين — على قدر ما نستطيع ان نفعل من دون ان نجلب علينا الملامة والشجب — سلطان كامل بلغت شهرته حتى اقاصي الارض ، واقتداء بامثال اسلافنا لقد اعترفنا بفوتيوس فلا يتمنع اخونا فوتيوس اذا طلبنا منه ان يثني مطرياً امام المجمع عطفنا وفضلنا او بالاحرى ان يمجد فؤاد الكنيسة الرومانية . فلقد عطفنا عليه عطفاً اخوياً بالاعتراف به كبطريرك شرعي اقيم وفقاً للقوانين وكشريك لرأس الرسل بطرس . ولقد فتحت له

جميع الكنيسة الرومانية قلب الام تمشياً على مثل غيرنا من اسلافنا ... وان عدداً عديداً من الاساقفة بعد ان ذهبوا الى المنفى ظلماً عادوا الى كراسيهم عن طريق التدخل الرسولي ... »

فلذلك اذا كان فوتيوس قد اهمل الشرط الذي فرضه البابا وهو ان يطلب السماح امام المجمع فانه لم يلمس الفقرة المتعلقة بالرئاسة الرومانية الاولى الجوهرية في النص (ص ٢٦٣) .

وثمت فقرات اخرى تتناول خاصة الاختلاف بين وجهة النظر الرومانية والبيزنطية اهملت ولطفت واسهب فيها حيال قضية فوتيوس . فبعض التبسط في الاسهاب خطابي ونافل كالاطراءات الموجهة الى الامبراطور والبابا وفوتيوس نفسه لتحمل الناس على الاعتقاد بقيام اتفاق تام بين رومة وبيزنطية ولتتشهد باللهجة الودية التي تظهر في بعض النقاط في النص الاصلي اللاتيني .

وعلى كل ان جميع هذه الامور سطحية ؛ اما المقاطع الجوهرية في النص البابوي حول اولية الكرسي الروماني فلم تمس وهذا هو الامر المهم اهمية اولية. ويسعنا ان نستنتج كما استنتج دفورنيك : « لنكن منصفين ولنعترف بأن فوتيوس واتباعه لم يستطيعوا قبول وجهة النظر الرومانية في قضاياهم . فلقد كانت وجهات نظر خصومهم التي اوعز بها الى الرومانيين تيوجنوست (Théognoste) الذي اعداه فوتيوس (ص٢٦٤) . — ولم يكن باستطاعة فوتيوس ان يذهب بعيداً في الامتيازات التي اعطاها المندوبين كما ان هؤلاء لم يكن بمقدورهم قط اعتناب الاكليروس البيزنطي بتصلب متطرف. وعلى هذا الاساس توصلوا الى تفاهم فاستطاع المجمع ان ينعقد. ويسعنا القول ان المندوبين الرومانيين قد انقذوا ما هو جوهري من حقوق الكرسي المقدس وان فوتيوس اظهر المسالمة. اما في قضية بلغاريا فلقد اجاب عليها : « ان الامر الذي نرغب فيه هو السلام ولا يأتينا تدبيرنا لمقاطعة جديدة الا بمشاغل بال جديدة وليسترجع الكرسي الرسولي ممارسة ولايته على بلغاريا . وبعد ان قطعت هذه الضمانات اعترف المندوبان بفوتيوس رسمياً وكان لا بد بناء على اقتراحهما من ان يرمز الى ذلك الاتفاق التام بين ابا المجمع بان يحتفلوا معاً بالاسرار المقدسة يوم عيد الميلاد يشترك فيه فوتيوس مع جميعهم. وختم المجمع اعماله ببتافات طويلة ليرحنا

الثامن وفوتيوس ووقعوا على اعماله وكان اول موقع المندوب بولس ومن ثم المندوبان الآخران وبعدهم الاساقفة الشرقيون وعددهم ٣٨٣ اسقفاً وما كان ناقصاً الا توقيع الامبراطور الذي لم يُحضر ولا جلسة من جلساته. ولذلك اقروا قيام دورتين اضافيتين احداهما عند الامبراطور والثانية في كنيسة القديسة صوفيا وعلى هذه الصورة كان ختامه الرسمي .

٦ ــ هل كان هناك انشقاق ثان لفوتيوس (ص٢٨٦ وما يليها)

استأنف المندوبان وقلبهما لا يخلو من بعض الغصة طريق عودتهما الى رومة وكانت مهمتهما ناجحة في النتيجة اذ استقر السلام بين الكنيستين بالتنازل عن امتيازات مهمة . أيقبل يوحنا الثامن ذراعهما ؟ وهل يسلم بأنهما لم يكن بمقدورهما ان يفعلا غير ما فعلا ؟ فلقد كان معقد امالها في رومة على زكريا الاناني الذي كان يشغل في المستشارية وظيفة آنستاز قيم المكتبة لانه كان على صلات ودية بفوتيوس جعلت له بعض النفوذ في انهاء تلك القضية انتهاء حسناً .

وعلى كل قد استقبل يوحنا الثامن المندوبين في صيف ٨٨٠ واطلع على اعمال المجمع ورسائل الامبراطور وفوتيوس . ونحن لا نجهل تأثيره من جوابه الذي ردّ به على هذا الاخير . وابدى البابا دهشته (ص٢٨٦) كيف بدلت وحوّرت امور كثيرة كنا قد حدّدناها من دون ان نعرف غلطة او نيّة من حرّفها على الرغم مما قررناه خطياً وشفوياً لاستخدام الرحمة حيال فوتيوس ــ وزد على ذلك انكم تلفتون في رسالتكم النظر الى ان الرحمة في رأيكم ينبغي ان لا يطلبها الا المجرمون وانه لموقف نتوقعه بالاحرى في الذين لا يعرفون الله. فنحن لا نريد تجسيم اعمال الماضي خشية من انزال عقابنا على قدر الاستحقاق. فكان من الواجب الا تستخدم مثل هذه الاعذار .

وبناء عليه فلا تغتنم حكمتكم المشهورة بمعرفة الاتضاع اذا ما دعيتم لطلب الرحمة من كنيسة الله المقدسة او بالحري اذا ما دعيتم للاتضاع كي تعظموا وتعرفوا ان تمنحوا عطفكم الاخوي للذي اظهر الرحمة لكم واذا ما بذلتم الجهود لمضاعفة اخلاصكم واستقامتكم حيال الكنيسة الرومانية المقدسة وحيال شخصنا الحقير فاننا نعانقكم كأخ ونتخذكم كصديق حميم » .

وهكذا وان اظهر يوحنا الثامن جودته وابوته لم يفصل الحزم عن الرحمة، فانه وان لم يغالِ في تصوير ماضي فوتيوس فهو يعرفه حق المعرفة وثمت لفوتيوس اسباب عدة تحمله على الاحتفاظ بالاتضاع واظهار نفسه عارفاً جميل من لم يعامله بقسوة . وختم يوحنا الثامن رسالته قائلاً « اننا نوافق بحبة على ما تقرر في القسطنطينية برسوم مجمعي لاعادتكم الى السدة البطريركية واذا اتفق ان عمل مندوبانا عملاً يخالف تعليماتنا الرسولية في هذا المجمع نفسه فنحن لا نوافق على عملهم ولا نعيره اية قيمة (ص٢٨٩) . ولقد بدا هذا البند الاخير غريباً في نظر المؤرخين (ص٢٩١) . وقد لاحظ بحق دفرونيك اننا ان رأينا فيه تراجعاً عما قيل لن يكون الا ان جعلنا البابا في موقف تناقض مشهود مع نفسه بعد كتابة سطرين او ثلاثة فلذلك ينبغي ان لا نرى في هذا البند الا مبدأ احتياط اراد من جرائه يوحنا الثامن صيانة حقوق الكرسي الرسولي وذلك اذا ما اتفق للمندوبين ان اتخذا تدبيراً ما لا يتفق مع رئاسته .

وحرص البابا على الاشارة الى ان اعادة فوتيوس الى كرسي البطريركية لم يكن الا تدبير عطف . وقد بين في رسالته الى باسيليوس (ص٢٩٣) موقفه المسالم هذا : « لقد اظهرتم اخلاصكم الصادق حيال كرسي بطرس وارجعتم الى ولايتنا دير القديس سرجيوس القائم على اراضي مملكتنا وكان قديماً يخص حقوقياً الكنيسة الرومانية المقدسة . — وسمحتم للقديس بطرس ان يعود الى ابرشية بلغاريا » . وصفوة القول لقد كان يوحنا الثامن مرتاحاً الى النتائج التي فاز بها مندوباه .

وفي الواقع لقد افلتت بلغاريا في النهاية من تحت الولاية الرومانية . افلم يكن ما وهبه باسيليوس لفوتيوس الا خدعة ؟

كلا ان الوقائع هي غير ذلك . ان تخلي (ص٢٩٥) باسيليوس وفوتيوس عن بلغاريا كان تخلياً صادقاً ونفذ عملياً . بيد ان الملك بوريس (ص٢٩٩) هو الذي غير فكرته اذ كان يرغب ان يجعل بلاده مستقلة على قدر المستطاع . واذ كان قد تعب من تلك المنافسة المستمرة بين البطريركيتين منافسة كانت بلاده مسرحها . فقتم الفرصة المناسبة لتحقيق حلمه القديم والفوز ببطريرك خاص .

ولقد انجز هذه الخطة التي رسم خطوطها بوريس بنفسه ابنه سيميون (Syméon) سنة ٩١٨ بتشييده بطريركية بلغارية مستقلة استقلالاً ذاتياً اعترفت بها رسمياً بيزنطية سنة ٩٢٧ . فلم يكن لفوتيوس اي ضلع بالامر .

وما هي الا سنتان تنقضيان على ذلك الاتفاق الذي طالما تمنوه حتى ادركت الوفاة يوحنا الثامن (١٥ ك١ ٨٨٢) فانتخب مارن (Marin) بابا مكانه وهو الذي كان في سنة ٨٦٩ — ٨٧٠ قطب المجمع الذي حكم على فوتيوس.

وفي مثل هذا المقام اثيرت المسألة الشهيرة وهي ان نعرف فيما اذا كان يوحنا الثامن قد شعر وهو في ساعته الاخيرة بان فوتيوس قد ضحك منه فاستوقد فيه حنقه وحرمه بدوره من على منبر القديس بطرس — فيكون ذلك انشقاق فوتيوس الثاني — وهذه هي الرواية التي يعتمدها مؤرخونا (ص٣٠٢) .

وفي هذا الصدد لا يحجم دفورنيك عن التأكيد انها ليست الا اسطورة ابتدعها بمتها اتباع اغناطيوس ، اعداء فوتيوس الالداء . وهذا هو القسم الجديد حقاً في بحوثه . فالنتيجة التي توصل اليها والتي تتفق كل الاتفاق مع بحوث الاب غرومل « Grumel » المستقلة عن بحوثه في هذا الموضوع نفسه ومع انتقادات المصادر عينها هي نتيجة صريحة فلا يوحنا الثامن ولا اي كان من خلفائه : مارن ، واسطفان السادس ، وفورموز « وهاريان الثالث الذي لم يشر اليه الراوي الجماعة » قاطعوا فوتيوس .

فمن اين جاءت هذه الاسطورة وكيف اتلدت ؟

لقد ناقش دفورنيك في اكثر من خمس وعشرين صفحة (٣٠٢—٣٢٨) مناقشة طويلة كلام المؤرخين البيزنطيين هذا ليستنتج في الختام ان الاسطورة « كانت تستند الى مرويات بعض الوثائق التي ادخلت في الكتاب الذي هو مجموعة مقتطفات ضد فوتيوس واضيفت في بعض المخطوطات اليونانية الى اعمال المجمع الثامن » (ص٣٠٢) .

وجامع تلك الروايات لم يكن له غاية سواء أكان من وراء تحريفه الحوادث ام من وراء مزجها بعضاً ببعض ام بابتداعه ابتداعاً رسائل البابوات والاساقفة الشرقيين وسواء باختراعه اموراً برمتها (كحادثة وفد مارن الثاني الى القسطنطينية الذي كلفه ايفاده ان يسجنه الامبراطور ثلاثين يوماً — وكحادثة

المنبر الا ان يبرهن على ان فوتيوس الذي تواترت الاحكام عليه لم يكن باستطاعة احد ان يحله ولا البابا نفسه فاذن هو بطريرك لاشرعي .

ولقد الف هذا الكتاب حوالي نهاية القرن التاسع في عهد البابا فورموز (٨٩١ — ٨٩٦) واستُمدت منه الذرائع للتدليل على ان البابا يوحنا الثامن وثلاثة من خلفائه قد حكموا على فوتيوس .

ويجدرنا ان نقرأ عند دفورنيك نقده لهذا الكتاب الذي أُلِّفَ ضد فوتيوس ، واننا سنكتفي لتبين طريقته بان نورد باختصار اسطورة حادثة المنبر :

بعد ان ذكر المؤلف الجماعة مقطعاً من احدى رسائل نقولا الاول وشذرة من اعمال المجمع الروماني لسنة ٨٦٩ اضاف اليها تصريحاً لرئيس الشماسة يوحنا « وهو الذي صار بعد ثلاث سنوات البابا يوحنا الثامن » الذي يقدمه كناطق باسم آباء ذلك المجمع فكان ذلك التصريح ذمّاً لاذعاً لفوتيوس وقد انتهى على الشكل التالي : « وليمزق حديد حكمنا ذاكرته ولتقيد روابط الحرم الذين يتبعونه ويحمونه »...

ومن ثم يواصل المؤلف الجماعة قوله :«عندما ارتقى يوحنا الذي لفظ هذه الاقوال السدّة الرسولية بعد هادريان حرم هو ايضاً فوتيوس وذلك لما حاول هذا بداوراته خداع اوجين والموفدين الذين انفدهم البابا الى بلغاريا . فبعد ان اخذ البابا الانجيل صعد المنبر واعلن جميع الذين كانوا يستمعون اليه : ليكن محروماً من لا يعترف بان فوتيوس قد حكم عليه الله حكماً مشروعاً وانه للوضع الذي ابقاه فيه سلفانا الكلي القداسة البابا نقولا والبابا هادريان .. » — وبعد ان عدّد المؤلف الجماعة الباباوات الذين حكموا على فوتيوس اردف يقول : « ما من احدٍ من خلفاء نقولا قد حلّه ولم يكن لديهم حتى السلطان لحله . وعندما كان اغناطيوس لا يزال حيّاً وارسل يوحنا اوجين ورفاقه في صدد القضية البلغارية استولى عليهم فوتيوس وضغطهم شتى الوسائل ليحملهم على الاشتراك معه ليجر البشر الى التسكع في اودية الضلال . ولكن بعد عودتهم الى روما وتجهم يوحنا وحرمهم من على المنبر » (ص٣٠٤-٥) .

وان جميع هذه الروايات لمدعاة للتفكير! فنحن لا نزال لدينا اعمال المجمع الروماني لسنة ٨٦٩ ، فالناطق باسم الآباء لم يكن رئيس الشمامسة يوحنا بل غودريك (Gauderic) اسقف فيليترية (Velletri) . والاكيد ان يوحنا قد وقع على اعمال ذلك المجمع ولكن بعد توقيع الاساقفة والكهنة التابعين لكنائس روما عليها . وهنا يبتدع المؤلف الجماعة تصريحا طويلا عن لسان يوحنا البابا المقبل ويزعم انه رسالة بجمعية اصدرها البابا يوحنا الثامن ضد فوتيوس — وان حكم يوحنا الثامن على مندوبيه من على المنبر لهو اختراع محض ! — كلا ثم كلا انه لم تقم قطيعة قط بين يوحنا الثامن وفوتيوس وانما على العكس اذ ان هذا الاخير قد حفظ ذكر معرفة جميل هذا البابا الذي انتشله من تشدد ثيوفلاكت الاول وهادريان الثاني فقد دعاه في كتابه « ميستاغوجي » « Mystagogie » « باسم بطلي يوحنا » .

واننا نعرف عن مارن الذي شهد المجمع الثامن الذي صدر فيه الحكم على فوتيوس انهم احتفظ بالبرودة حيال البطريرك اما التاريخ فلا يعرف قطيعة بين الاثنين (ص ٣٠٧ — ١٤) . واما هادريان الثالث (٨٨٤ — ٨٥) فلم يأت الكتاب « المجموعة » على ذكره وانما نعلم بلسان فوتيوس نفسه ان علاقته بهذا البابا كانت ودية — والظاهر (ص ٣١٥) ان الامور سارت في عهد اسطفان السادس (٨٨٥ — ٩١) الذي جدد بحق فوتيوس حرومانات العهد السابق. ولا يجد دفورنيك مشقة في تبيان خطإ هذا الافتراض . فان هادريان الثالث قد اوفد في غضون عهده القصير بعثة الى القسطنطينية كانت كما يؤخذ من شهادة فوتيوس تقصد بطريركها لتبادل الرسائل المجمعية المعتادة . ولما كان هادريان الثالث لاقى حتفه عاجلا فان اسطفان السادس هو الذي شكر موفد تيودوز اسقف اوريا (Oria) وهنأه على انجاز مهمته بامانة . وقد علق دفورنيك تعليقا فيه الكثير من النظر الدقيق العائب على ذلك فقال : « اليس من الباعث على الدهشة ان نقرأ اطراء حبر روماني وشكره لمبعوث كان عليه ان يبلغ تحيات الكرسي المقدس للامبراطور ويطمئن في الوقت نفسه البطريرك الى ان كنيسة روما كانت ترغب في ايجاد علائق ودية معه وهو الذي تعتبره قد جعل القطيعة مع كنيسة بيزنطية» (ص ٣١٩) — فالعلائق اذن

قد كانت وديّة في عهد اسطفان السادس .

وقد بقي البابا فورمور (٨٩١ — ٩٦) انهو الذي حكم على فوتيوس ، طبعاً لا كبطريرك (لان فوتيوس كان قد عزل من خمس سنوات في سنة ٨٨٦) ولكن بالنظر الى ماضيه والى اعماله في اثناء عهده بالبطريركية . وبالاستناد الى رسالة من فورموز الى سدايان يعتقد الاب غرومل هذا الاعتقاد. اما دفورنيك الذي تعمق كل التعمق في نقد تلك الرسالة فرأيه مناف كل المنافاة لاعتقاد الاب المذكور (ص ٣٤٨ — ٦٠) . — اذا كان حقاً ان المشاجرات نشبت بين اتباع اغناطيوس واتباع فوتيوس بعد ذهاب هذا الاخير فعكرت مجدداً صفاء كنيسة بيزنطية ولم يستطع فورموز اخمادها ، فما من دليل يقيم البرهان على ان القطيعة قامت من جديد بين روما وبيزنطية (ص ٣٥٣—٤—٥) وليس من شيء في الادب المعاصر قد احتفظ باثر منها. ففورموز (ص ٣٥٧) يتكلم على انشقاق ، لكن هذا الانشقاق هو انشقاق داخلي في كنيسة بيزنطية بين اتباع اغناطيوس واتباع فوتيوس لا بين بيزنطية وروما.

ويسطع برهان في نظر دفورنيك (ص ٣٥٩) على عدم حرم اتباع فوتيوس هو سكوت المصادر اليونانية عن مثل هذا الحرم لان عملاً على هذه الصورة يضع في متناول اتباع اغناطيوس حجة من خير الحجج . فعليه ان الناسخ (وهو احد اتباع اغناطيوس الشديد التعصب) لم يستغل هذا الحدث . فالنتيجة التي لا مفرّ منها « انه ما من امر يخوّل التسليم بقيام مشادّة جديدة بين بيزنطية والروما نجمت عن غلطة فورموز وعن قصر نظره» (ص ٣٥٩) . اما الانشقاق الداخلي في الكنيسة البيزنطية بين انصار اغناطيوس وانصار فوتيوس فقد استمر الى بعد وفاة فورموز (٨٩٦) .

ولنعد الى فوتيوس — لقد اقترع المجمع الذي ارجعه الى كرسي البطريركية (٨٧٩—٨٠) على عقوبات صارمة بحق الذين يأبون الاعتراف به كبطريرك شرعي ، بيد ان تلك التدابير لم توفق الى قمع معارضة اتباع اغناطيوس المتطرفين ، وعندما تسلّم فوتيوس عرشه البطريركي انسحب الكهنة التابعين لكنيسة القديسة صوفيا من الكنيسة مقاطعين الاحتفال بالاسرار المقدسة . وانه لمن الصعوبة بمكان ان نقوى على قول شيء واضح عن اهمية تلك المعارضة وعن

عدد الذين ظلوا غير مبادنين حتى بعد ان لفظت روما كلها في مصلحة فوتيوس. اما الاساقفة الاشد تصلباً في تردهم فابعدوا الى المنفى لكن عددهم لم يكن كبيراً جداً ؛ وكانت العناصر الاكثر تعصباً من بين رجال الاديار خاصة . وكانوا على قدر قلة عددهم تشتد حمية عصبيتهم (ص ٣٣٠). والعناصر المعتدلة كل الاعتدال من الاساقفة والاكليريكيين التابعين لاغناطيوس قد انضمت الى فوتيوس .

ومن الواجب ان نشهد له انه عمل كما كان في مقدوره ان يعمل لاحلال الهدوء في كنيسته ، ومع ذلك وعلى الرغم من كل الامور فقد انشأت اقلية ضئيلة من المتطرفين برئاسة زعيمها ستيليان النيوزاري « Stylien de Néocésarée » ومتروفان الازميري « Métrophane de Smyrne » « كنيسة صغيرة » ظلت غير مُهادنة تحاشت عن الاتصال بفوتيوس وبمن سلمهم من الاساقفة.

وما هو الا وقت قليل حتى غيبت وفاة باسيليوس غير المنتظرة مجرى الحوادث مجدداً — فارتقى ابنه لاوون العرش ودشن عهداً بارتقائه منصة الحكم (٨٨٦) فقد ابدى منذ مطلع عهده عطفه على حزب المتعصبين فقط الذي كان يميل اليه في ايام ابيه وان لم يكن عن اقتناع شخصي فعن امتعاض من والده ومن سياسته (ص ٣٤٠).

ولم يكن صعباً اقناع ليون بانه لن يقوى على الاحتفاظ بفوتيوس في كرسيه. اجل لقد تولى فوتيوس تعليم لاوون (٣٤١) وكان استاذه طوال سنتين او ثلاث فقط ولم يكن ليون يتجاوز انذاك الثانية او الثالثة عشرة من عمره. وكان الاستاذ والتلميذ لا يحب احدهما الاخر الحب الجم واتفق للبطريرك ان انّب غالبا لاوون على حياته الخاصة وعلى تصرفه حيال والده .

وقد عقد لاوون النية على التخلص من البطريرك من دون ان يتوسل بالعنف لكي لا يثير ردة افعال الاحرار فشدد على فوتيوس ضغطه ليحمله على تقديم استقالته، وتذرع بانه يريد ان يعهد بالكرسي البطريركي الى شقيقه اسطفان الذي اعده لهذه المهمة باسيليوس ابوه (٣٤٢) — . ومن المحتمل ان فوتيوس وافق على ان يوقع صك التنازل فرُقي اسطفان الى السدة البطريركية البيزنطية ولم يكن له من العمر الا ١٨ عاماً فقط . ونُفي فوتيوس الى هيريه (Hiéria)

على شاطئ اسيا الصغرى ، وهي فناراسي « Phanarassi » في يومنا الحاضر حيث استأنف اعماله العلمية والادبية ويرجع ميعاد وضع كتابه : (Mystagogie du Saint-Esprit) الى ذلك التاريخ . ولقد جهد فوتيوس جهده ليبين بواسطة العهدين القديم والجديد وبواسطة كتابات الآباء ان الروح القدس ينبثق من الاب وحده .

ومن ثم فقدنا آثار فوتيوس تماماً واختفى من المسرح اختفاء مجهل معه حتى تاريخ وفاته الصحيح : اما دفورنيك فيجعله في شباط ٨٩٢ على حين ان غيره يؤخره حتى ٨٩٦ (ص ٣٦١) .

وحسبنا ان نقف عند هذا الحد من بياننا.

لقد قرر الاب لابوتر «Lapôtre» في كتابه القيم عن يوحنا الثامن (١٨٩٥) الحقيقة بشأن موقف هذا البابا حيال فوتيوس. ومن رأيه ان يوحنا الثامن لم يخرب قطّ عمله الخاص. بيد ان الاب لابوتر لم يكن قد اوضح قضية المنبر. وقصر الاب امان (Amman) في مقالاته العلمية (يوحنا الثامن ، ويوحنا التاسع وفوتيوس) التي صدرت في المعجم اللاهوتي الكاثوليكي نفسه على اعلان السجل المعتاد لفوتيوس وقبل منه جزءا من الاسطورة المستندة الى السجل نفسه .

ويلخّص دفورنيك في سنة ١٩٣٣ بكتابه « اسطورتا قسطنطين ومتوديوس كما تراهما بيزنطية » ما يلي « ليس لدينا وثيقة حاسمة تخولنا تأكيد انقطاع العلاقات بين روما وبيزنطية قبل سنة ٨٥٥ . وليس بالامكان نسبة بادرة من هذا الشكل الى غير البابا اسطفان الخامس — . وخطا الاب غرومل في السنة نفسها خطوة الى الامام بتقريره ان اسطفان الخامس اعتبر فوتيوس كبطريرك شرعي ولكنه قد توقف مترددا امام البابا فورموز فقد يكون هو الذي اصدر الحرم — اما دفورنيك فيعتقد ، كما رأيناه ، ان من واجبه التصريح في المعنى السلبي .

وانه لمن شأن اولي الاختصاص ان يبينوا لنا عما اذا كانت براهين دفورنيك قاطعة لا مردّ عليها وتؤدي الى الاقتناع التام . ومن يجهل الصعوبة القصوى حيال النصوص المتناقضة لينتخب منها بعضها ويستخرج منها الحقيقة؟ فان القيمة

النسبة النفسية ، وهي ضرب من النظر الثاقب والتخمين الذي يكون نوعاً اما لمصلحة الشخص الذي نتتبع اثاره واما لغير مصلحته ، ليمثل دوره بدون شك ويوجه التنقيبات ويؤثر على الاحتكام الذي نجهد الجهد لاستنباطه منها . — والمؤرخون الذين يستأنفون بعد دفورنيك اخضاع هذا السجل لمبضع نقدهم هم الذين سيقولون لنا اذا كان قد عرف ان يجد لحمة التاريخ الحقيقية.

ومن لا يتمنى ان لا تلاقي ذكرى رجل كفوتيوس من التاريخ الذي طالما ارمضها تعويضاً يسعه وحده ان يأتي به.

ولقد اكد فوتيوس انه يفضل دروسه وكتبه العزيزة وانه لم يسعَ وراء المجد. ولنسجل له هذا الاعتراف. بيد انه قد القى في ذهننا انه كان يستشعر قيمته استشعاراً رفيعاً جداً ليرى نفسه جديراً بها حتى اذا ما وصل الى مركزه فان كبرياءه لا تخوله ان يتنازل عنه . وزد على هذا انه لم يجرأ على القيام بعمل الاتضاع الذي طلب منه البابا ان يقوم به امام المجمع . وهو لو كان فعل لكان اكتسب حتى احترام الاعداء ولكان عمله هذا سهّل عليه بعد ذلك احلال السلام في كنيسته . لكنه اعتمد على مرونته التي لم تكن دائماً لتفوز بالنتائج الاشد استمراراً .

ولئن كان من الصعب التسليم بان فوتيوس يستحق التكريم الذي أسبغ عليه من بعد—هذا التكريم الذي يستوجب صفات اخرى لكي يصبح مفروضاً على الاحترام الشامل — فانه من الواجب علينا ، ولو على الاقل ، ان نمدح ثقافته العالية فقد كان من ابرز ممثلي ذوي الكفاءة لذلك التجدد الادبي والعلمي الذي كان يعدّ من رجاله بعد الامبراطور تيوفيل القطبان تيوكتيست وبارداس . وكان يلذّ له التاريخ والقواعد والتفسير واللاهوت . اما حبه الاطلاع الذي كان يساعده ذكاء نادر فكان شاملاً . اما مؤلفاته فتقيم لنا برهاناً ساطعاً على سعة علمه اكثر منه على فكرة اصيلة مبدعة . وهذا ما جعله على طرفي نقيض مع اغناطيوس الذي لم يكن ورعه التقشفي يتذوق الادب العلماني الّا تذوقاً قليلاً واوجب احترامه على الطبقة المثقفة في العاصمة فاكتسب عطفها.

ولا يسعنا الا شكر الاب دفورنيك الذي استجلى غوامض كانت مستحكمة في هذا الباب ولانه قال قوله الفصل والعدل في « المزيفات » التي اكتسبت طويلاً قيمة تاريخية .